الفصل التاسع

ممالك قـابيل

حمل آدم وحواء الهم بسبب ابنيهما . اشتهر الابن الاكبر قابيل بأنه قاتل أخيه هَابيل وكانت له صفة أخرى تميزه . كان هو الرأسمالى البدائى ، الذى ظهر بعد جيل واحد من الخروج من الجنة . يقول العهد القديم إنه كان أول من أقام حدوداً للحقول . وبفعلته هذه أرسى أول الحواجز بين شعوب العالم . فمنذ ذلك التاريخ تحكمت التخوم فى المجتمع والتاريخ والجينات .

لاشك أن الفكرة التى طرأت على ذهن قابيل قد خطرت بأذهان الفلاحين البدائيين . مع الزراعة ولدت فكرة امتلاك الأرض . يمكننا أن نشهد هذه العملية اليوم عندما يهجر الصائدون جامعو الثمار طريقتهم القديمة فى الحياة . فى أوائل هذا القرن تحول شعب الكيبسيجى بكينيا ليحيا على زراعة الأذرة بإحدى المستوطنات . بسرعة ظهرت تفاوتات هائلة فى الثروة نشأت عن نوعية الأرض التى حصل عليها كلّ . إذا ما كان المحصول ضعيفا مات الفقراء جوعا وازدادت سمنة الأغنياء . ازدادت المنافسة بين الذكور لجذب الاناث ، حتى ليمكن القول إن ظهور الزراعة قد وسم بدء حملة جديدة فى معركة الجنس . فمن كان يمتلك أفضل الأراضى إنتاجاً كان ينجب من النسل أكثر كثيرا ممن لا يمتلك . ربما كان لنفس هذا الاضطراب الاجتماعى أثره على الفلاحين بكل مكان . ربما نشأت الطبقات

الاجتماعية حقا مع الزراعة . فمن عهد ميسينى * وحتى شيلى القديمـة كان ثمة فارق – نجده اليوم أيضا – فى الطول والصحة (يوضحه مدى تلف العظام فيما فُحص من هياكل عظمية) بين الثَّرى الذى يُدفن ومعه حليُّه ، وبين الريفى الفقير الذى يدفن فى تواضع .

لا جدال فى أن الصراعات بين أوائل الفلاحين قد امتدت إلى المناقشات حول من يزرع ماذا وأين . لم يستغرق الأمرْ طويلا حتى وقعت الملكية بين أيدى قلة من الناس ، وحتى تطور المجتمع نحو نظام الدول المتنافسة الذى نشهده اليوم . فأيا كان نوع الحاجز الذى يمنع الشعوب من اللقاء والتزاوج – جبلا كان أو تخوما أو عجزا عن التفاهم – فإنه سيتسبب فى تباعدهم . هناك الآن على طول العالم وعرضه اختلافات وراثية تعكس ما كان بين المجتمعات القديمة من فواصل – حدود الحقول !

أما الحواجز الناشئة عن السياسة فلم تتطور إلا مؤخرا . يقترح علم الوراثة أن ما نراه كتاريخ – نقصد الصراع بين الشعوب – هو أمر جد حديث . من العهد القديم وحتى كفاحى ، وجد المؤرخون المفتاح إلى شعوب العالم فى حركة الجماهير والفتوح العسكرية . لكن الأمم الغازية لم تبدأ فى تشكيل التاريخ الوراثى إلا فى الآلاف الأخيرة المعدودة من السنين . كانت الشعوب وچيناتها تتحرك قبل ذلك بالانتشار التدريجى أو بالهجرة إلى أراضى فارغة ، لا بهزيمة دولة وانتصار الأخرى .

كانت المزارع فى الكثير من جهات العالم – ومنها وادى نهر الأردن – تقع قرب لأنهار في مناطق مجدبة . كانت مثل هذه الأنهار – ونهر النيل بالذات – تفيض، تترك غريناً خصبا عند تراجعها . يزرع الفلاحون المعاصرون الأرض بعد أن تنحسر عنها مياه فيضان نهر السنغال . ويبلغ العائد على عملهم ١٥٠٠٠ ٪ ، نعنى أن كل

* عهـد الإرتقاء السياسي بمدينة ميسيني اليونانية الذي امتد من ١٤٠٠ ق . م . إلي ١١٠٠ ق. م . (المترجم) .

كالورى من الشغل يبذلونه يستعيدونه مائة وخمسين ، فى صورة غذاء . قارن هذا بعائد يبلغ نحو ٥٠ : ١ فى أكفأ حقول الأرز ريًا . إن العائد من سهول الفيضان هائل ، لكنا لا نستطيع التنبؤ به – تماما مثل سوق الأوراق المالية بهونج كونج . فهو فى بعض السنين ممتاز ، وفى البعض الآخر قد يكون كارثة . لقد رصد فيضان النيل منذ عام ٦٤١ قبل الميلاد وحتى اليوم . ولقد كان هناك بين الأعوام اختلاف فى مساحة الأرض التى تغمرها مياه الفيضان يصل إلى مائة ضعف .

ولقد نتج عن هذا فى سنغال اليوم نظام تميز طبقى صارم . لبعض العائلات حرية الوصول إلى سهول الفيضان حتى عندما تكون المساحة التى يغمرها الفيضان صغيرة، أما البعض الآخر فلا يسمح لهم بزراعة المحاصيل إلا إذا ارتفع النهر لتغطى مياهه مساحات واسعة من الأرض – ليصبح عليهم فى سنى الجفاف أن يفتشوا عن الطعام فى مكان آخر : الأمر الذى كان يعنى فى الأزمنة القديمة العودة إلى أسلوب الصيد وجمع الثمار . ربما تطورت أقدم المجتمعات المتوطنة لمواجهة المخاطر لا لرفع كفاءة الفلاحة . إن المشاجرات الطائشة من أجل الحصول على أفضل الأراضى فى عام قحط ستكون خطرة ومكلفة . لقد نشأت المجتمعات كوسيلة لمواجهة المجهول .

منذ عشرة آلاف عام قام النطوف * – سلالة أول فلاحى وادى الأردن – ببناء قرى ذات بيوت خشبية . وفى خلال ألف عام ، وربما قبل ذلك ، كان ثمة الكثير من قرى أكبر فى العراق . ولم يتطلب الأمر أكثر من بضعة قرون كى تتقدم الحضارة للحد الذى تصبح فيه المستوطنات مطوقة بالحوائط والخنادق وأبراج المراقبة . بدأت الحرب تلعب دوراً ما أضاعته ! كان الفلاحون يدفعون خارج قراهم بسبب تدهور التربة وضغط الانفجار العددى . تحركوا فى العراق إلى السهول الحارة القفرة على مسافة من نهرى دجلة والفرات . وبسرعة ظهرت أول دول المدينة : ربما

* شعب أقام حضارة بفلسطين وجنوب سوريا . كانت حضارة صائدين يدعمون غذاءهم بجمع بعض الحبوب البرية . عاشوا في جماعات بالكهوف ، وإن كان البعض منهم قد سكن قري بدائية (المترجم) .

بسبب الحاجة إلى التنظيم التى بدأت مع ابتكار الرى . وانقسمت البشرية لأول مرة بحواجز سياسية لا فيزيقية . توضح الأنماط الوراثية بالعالم الحديث أنه من ذلك التاريخ أصبح التعصب أحيانا عقبة فى سبيل تدفق الجينات ، مثلما الجغرافيا !

ساعدت التكنولوچيا الرأسماليين ، كما تساعدهم الآن لازالت . منذ ستة آلاف عام كان ثمة خيول ، فى سريندى ستوج بأوكرانيا ، ذات أسنان محطمة ، تقول إنها كانت تقاد بالشكيمة . وركوب الخيل يسرع الحركة ويساعد الناس على العمل سويا لسرقة موارد الآخرين . سنلحظ قوة الحصان فى الغزو إذا نظرنا إلى نجاح بضع عشرات من الأسبان فى تحطيم امبراطوريتى الإنكا والأزتك ، أو نجاح المغول فى اجتياح المجر . بعد فترة قصيرة من ظهور الخيالة قامت حضارات شرق أوروبا ببناء الحوائط حول مدنها . وفى خلال بضع سنين انهارت مجتمعاتها .

وعلى عام ٣٦٠٠ قبل الميلاد كانت هناك مدن كبيرة فى مملكة ما بين النهرين. كان يقطن مدينة عروق عشرة آلاف نسمة ، ثم تزايد العدد إلى خمسة أمثاله خلال ألف عام . يرجع هذا التزايد إلى الحروب . لقد هجرت عشرات القرى وانتقل الناس إلى المدن الجديدة . كانت دول – المدينة السومرية هى أول الكيانات السياسية المنظمة فى التاريخ ، وقد نشأت بها الكتابة والمركبات ذات العجلات . كانت بها طبقاتها الكهنوتية والأرستقراطية ، وبالطبع ، جماهيرها المطحونة . عَجّل من زوالها سوء الإدارة . ومع تواصل الرى أصبحت التربة ملحية . وفى سنى سامراء الأخيرة انخفض انتاج المحاصيل إلى الثلث . وأخيرا سقطت أول الكيانات الدولية أمام أول الامبراطوريات ، امبراطورية الأكاديين ، التى هجمت من الشمال .

انتهت أيضا الكثير من المدن القديمة بسبب سوء التخطيط . فمدينة بيترا المهجورة بالأردن تحيطها اليوم أميال من الصحراء القاحلة . ولقد حفظت شواهد سقوطها بصورة طريفة . تعيش أرانب الصخر فى روابى ترابية جماعية ، ولهذه الحيوانات عادة

شاذة هى أن تثبّت بيوتها بالبول ، الذى يجف ليصبح مادة غروية لاصقة ، إن تكن كريهة . ولقد حفظت هذه المساكن البذور التى كانت تتغذى عليها هذه الأرانب . كانت بيترا فى قمة مجدها محاطةً بغابات الأرز والصنوبر . أُحرقت هذه الغابات لتحل محلها أراضى زراعية استُغلت بكثافة . وفى غضون بضعة قرون تغلبت الصحراء . ولا شك أن سكان بيترا قد هجروها فى أيامها الأخيرة ، ومعهم چيناتهم.

من المؤسف أن أحدا لم يدرس أنماط چينات السكان الحاليين للعراق أو الأردن (فقد يكون البعض منهم السلاّن المباشرين للسومريين أو شعب بيترا) . فإذا تمت هذه الدراسة فقد تفصح الآثار الوراثية لهذه الوقائع التاريخية القديمة عن نفسها . لقد تركت مجتمعات قديمة أخرى – بل والفئات داخلها – آثارا بيولوچية بقيت حتى اليوم .

وبعد سقوط السومريين بوقت قصير ظهرت دولة – المدينة الاغريقية . كانت فلسفتها هى أساس علم السياسة المعاصر . وما الإلياذة والأوديسة إلا حكايات عن الحروب بين هذه الدول المدينة – وكان من بينها كورنيث واسبرطة وأثينا . ودخلت اليونان عهدها الكلاسيكى بعد نشوء هذه الدول بزمن قصير . ولقد كان هذا نصرا، لا من الناحية الفنية فحسب وإنما أيضا من الناحية السياسية . فمنذ ثلاثة آلاف عام كانت اليونان هى أكثر دول أوروبا اكتظاظا بالسكان . انتشر شعبها المغامر ليشكل اليونان العظمى – ماجنا جريكا – امبراطورية تمتد من القوقاز إلى أسبانيا . كان ثمة أربعون مدينة يونانية فى جنوب إيطاليا ، من بينها سيراكوزا أكبر مدن العالم آنئذ ، وسيباريس التى كان ثراؤها مضرب الأمثال .

كان لهذا التوسع آثار بيولوچية لا تزال موجودة . تُبين أنماط مجاميع الدم والانزيمات أن أهالى جنوب ايطاليا وصقلية المعاصرين يختلفون وراثيا عن مواطنيهم بالشمال ، وأنهم – بسبب تاريخهم – يشاركون شعب اليونان المعاصر فى الكثير من الچينات . تبقى چينات أولى الدول الأروبية شاهدا على ماضيهم . يدين أهالى

سردينيا أيضا بتفردهم المميز ، لدولة – مدينة قديمة ، فهم يرتبطـــون كثيرا باللبنانيين المعاصرين ، الذين تحتل دولتهم اليوم موقع الأراضى الفينيقية – وكان الفينيقيون يوما أعظم تجار البحر المتوسط .

أما اليونانيون المعاصرون فهم من بقايا الماضى لا يزالون – على عكس السومريين والفينيقيين . فى نحو زمان الامبراطورية الاغريقية كان ثمة اقتصاد قادر آخر – الاقتصاد الإترورى الذى أصبح الآن مثالا للغموض . عاش هذا الشعب فى مدن يصل تعدادها إلى نصف مليون ، وكانوا متمرسين فى الصناعات المعدنية. كانت لهم شخصية أنثوية حالمة – كما يقول جيرانهم اللاتين . ربما كانوا أنثويين لكن امبراطوريتهم – ولفترة وجيزة – كانت تضم روما نفسها . ونحن لا نكـــاد نجد لها آثارا : القليل من التوسكانيات (وتشير إلى موطنهم) ، بعض من تماثيل مبهمة ذات ابتسامة إترورية ، وقليل من النقوش . وهناك شىء غريب آخر : كبد برونزى لشاة مغطى برسائل ، كان الرهبان يستخدمونه كوعاء تنزع به أحشاء الحَمَل الضحية . كانت بقايا الماضى هذه هى كل ما نعرفه حتى عهد قريب عن الأمة الإترورية .

لكنا نعرف الآن أن إرثهم لم يُفقد . فبين نهرى آرنو وآلتيبر – فيما يضم الآن أومبريا – توجد منطقة مميزة وراثيا عن جيرانها . إنها تحفظ لا زالت بعض الجينات الإترورية . لا يزال إرثهـــم البيولوچى باقيا فى سلالتهم ، رغم اختفاء لغتهم وحضارتهم .

قد يكون الدين مثل القومية حاجزا فعالا يعيق حركة الجينات . دُفع اليهود إلى الهجرة من شرقى المتوسط فى عام ٦٠٠ قبل الميلاد . تشتتوا بسرعة خلال أوروبا والشرق الأوسط . واستمر التشتت قرونا . ثم طُرد اليهود من أسبانيا عام ١٤٩٢ وتحركوا جملة إلى تركيا . فإذا قارنا جينات المعاصرين من اليهود بغيرهم من نفس

الدولة (أو : چينات اليهود الأتراك بچينات الأسبان) فسنجد العشيرة اليهودية بكل دولة محتفظة ببعض التميز الوراثى . صحيح أن الفروق صغيرة (فى حدود الموجود بين معظم العشائر ذات الأصل الأوروبى) لكن معظم الشعوب اليهودية تؤلف بسهولة جماعة مميزة . غير أن هناك استثناءات . ففى اليمن لا يمكن تمييز اليهودى من المسلم : ربما عكس هذا تاريخ تحول السكان المحليين إلى اليهودية . وبعض من تحول (يهود الفلاشا فى إثيوبيا مثلا) يختلفون وراثيا اختلافا واسعا ، بالرغم من أن ولاءهم لليهودية ليس مجال شك . وهناك من التشابة بين اليهود وغير اليهود فى معظم أوروبا ، ما يكفى للقول بأن قد كان هناك تبادل للچينات منذ الدياسبورا . فبالرغم من أن التقسيم الدينى كان بالتأكيد حاجزا ، إلا أنه لم يكن مما يستحيل اختراقه .

لقبائل اسرائيل قدرة لا محدودة على اجتذاب الأساطير . ثمة شعوب مختلفة تتصور أنها من القبائل الضالة (ومن ثم من سلالة الأنبياء) ، بل ولم يسلم حتى البريطانيون من هذا : فقد ظهر يوما الاسرائيليون البريطان (انقرضوا الآن) ، وقد تسلطت عليهم فكرة اثبات أن أصل العائلة المالكة قد ورد بالعهد القديم . وادعاءات البعض ممن يعلنون علاقتهم بالقبائل الضالة أفضل قليلا من غيرها . هناك شعب بجنوب أفريقيا (شعب اللمبا) له بشرة سوداء ، ولكنه يختلف عن جيرانه : فلهم أنوف معقوفة ، ويمارسون الختان ولا يأكلون لحم الخنزير ويؤدون صلاتهم بلغة غير مفهومة . يتصور شعب اللمبا أنهم إحدى قبائل اسرائيل الضالة . تبين چيناتهم أنهم أكثر شبها بشعوب الشرق الأوسط من غيرهم من شعوب جنوب أفريقيا ، ربما كانوا يحملون بعضا من الإرث الوراثى والحضارى للتجار العرب الذين كانوا يزورون هذه المنطقة من العالم منذ ألف عام . فإذا لم يكن هذا الشعب إسرائيليا ، فقد يمكنهم على الاقل إثبات أن لهم سلفا ساميًا .

ثمة تحركات أخرى كثيرة قد تمت بالتجارة لا بالغزو . فالتجار كثيرا ما يتركون بطاقات زيارة وراثية . يمر طريق الحرير من شانجان – المدينة الصينية القديمة – إلى

البحر المتوسط . كان هذا الطريق ممرا تجارياً لفترة تزيد على الألف عام ، وكان فى معظم هذا الوقت شريانا رئيسيا للتبادل الحضارى . يمر الحرير من الشرق إلى الغرب، ليرجع القطن والرمان والبوذية . لا تحمل الصين المعاصرة إلا القليل من التباينات الوراثية فى الهيموجلوبين (صبغة الدم الحمراء) الشائعة فى بقية العالم (أنظر ص ٣٩) . تفصح دماء الشعوب على طول طريق الحرير المعاصر عن آثار من جينات الهيموجلوبين متباينة نشأت حول البحر المتوسط وانتشرت مع التجار على طول هذا الدرب العتيق . ففى الطرف الغربى له بالصين يحمل فرد واحد من بين كل مائتين هيموجلوبينا شاذا ، أما فى الطرف الشرقى البعيد فتنخفض هذه النسبة إلى أقل من واحد فى الألف .

هناك تشتتات أخرى نتجت عن التهجير القسْرى . لقد حدث فى الماضى القريب ما يناظر الدياسبورا اليهودى . قام ستالين مثلا بنقل الآلاف من الصين إلى أواسط آسيا . وتجرى الآن تحركات للأقليات عبر أوروبا الشرقية ، عقب انهيار النظم الشيوعية . ربما كان لبعض هذه الهجرات نتائج وراثية سيكتشفها أنثروبولوچيو المستقبل (وإن كان يبدو أن الاضطرابات القديمة ، فى البلقان على الأقل ، قد أدت بالفعل إلى قدر من المزج الوراثى أصبحت معه الحدود العرقية – برغم أنها من أسباب الصراع – لا تعكس أى تغير وراثى) .

يظهر كثيرا اتجاه لجمع شمل شعوب مزقها التاريخ . هكذا وجدت اسرائيل بعد الشتات . بودل اليونانيون (الذين يمكن تعقب أسلافهم البعيدة إلى اليونان العظمى نفسها) بالأتراك الذين وجدوا أنفسهم معزولين فى اليونان المعاصرة . نقل المتحدثون باليونانية – وقد يحمل الكثيرون منهم جينات بيزنطية – من أماكن بعيدة قد تصل إلى القوقاز شرقا . ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت هناك حركة أقل وضوحا قامت بها الحكومة الألمانية لاستعادة أقلياتها المعزولة فى أوروبا الشرقية .

فى كل هذه الحالات ، كان بعض من الدافع نحو القومية هو الرغبة فى توحد شعوب تشترك فى ثقافة شائعة . وكثيرا ما كان هذا الدافع يظهر فى التمسك باللغة، الأمر الذى يفسر الضغوط التى تمارس على المهاجرين إلى اسرائيل لتعلم اللغة العبرية ، وعلى الألمان فى الشرق كى يستعملوا لغة أسلافهم . ولقد قالها الدكتور جونسون أيضا بطريقته الجميلة إن اللغات هى أصل الأمم . وقوة اللغة فى تحديد هوية الأمة وفى منع التزاوج مع الآخرين ، تظهر واضحة فى تشريعات كيلكينى * لعام ١٣٦٧ . ففى هذا التاريخ كانت انجلترا قد سيطرت على تلك المنطقة من أيرلنده حول دبلن ، وكانت تسمى آنئذ البيل . كان كل ما وراءها يعتبر همجيا . انتبهت السلطات إلى تعديات السكان المحليين التى وصلت إلى حد الزواج من المستوطنين الانجليز . وضعت إذن تشريعات تقول إن .... الكثير من الانجليز بالبلاد المذكورة قد تخلوا عن اللغة الانجليزية وأسلوب الحياة وطريقة ركوب الخيل والقوانين والأعراف ليعيشوا ويتصرفوا تبعا لطريقة أعدائنا الأيرلنديين ونظامهم ولغتهم، بل ولقد عقدوا زيجات ومصاهرات سيئة السمعة مع الأعداء الأيرلنديين . الأمر الذى يؤدى بالبلاد المذكورة إلى خضوع وضعف اللغة الانجليزية والولاء الواجب لمولانا الملك والقانون الانجليزى ، ليقوّى العدو الأيرلندى ويرفع من شأنه على نحو يخالف المنطق .... وعلى هذا فإذا استخدم أى انجليزى ، أو أيرلندى يعيش بين الانجليز ، اللغةَ الأيرلندية ، فلابد من التعرف عليه ومصادرة أملاكه . لا تزال الحكومة الأيرلندية تكافح من أجل حماية اللغة الجيليّة الأيرلندية التى توشك على الانقراض . وفى تسلط تاريخى غير مسبوق شمال الحدود ، ظل الحظر على استخدام أسماء الشوارع الجيلية ساريا حتى رفع عام ١٩٢٢ . لقد كانت محاولة استمرت ستمائة عام ، قامت بها أمتان تتقاسمان جزيرة صغيرة للإبقاء على الانعزال الاجتماعى بينهما باستخدام اللغة – وهى محاولة ، للغرابة ، قد استمرت لتموت أثناءها إحدى اللغتين .

* كيلكينى مقاطعة بجنوب شرق أيرلنده (المترجم) .

إن أى كيـان يبقى منعـــزلا عن أقرانه – لغةً كان أو مستـــودعَ جينات – قمين بأن يبدأ فى التطور بعيدا عنها . ثمة توازٍ بين عمليات التطور البيولوچى والعمليات التى تنشأ عنها لغات جديدة من لغةٍ أم . هناك على ما يبدو أكثر من مجرد تشابة بين التغير اللغوى والتغير البيولوچى . إن عوائق اللغة تبطىء من حركة الجينات ، والعوائق بين اللغات قد تسيم خطوة وراثية . إن اشجار عائلات اللغات تشبة كثيرا الاشجار التى تبنى على الجينـات المشـتركة ، الأمـر الذى قد يوحى بتاريخ مشترك بين اللغـات والجينـات .

هنـاك بالعالم أكـثر من خمسة آلاف لغـة ، ولقد انقـرضت لغات أكـثر – مثل الإترورية . وكمثل الجينات ، تتطور اللغات لأنها تُجمّع الطفرات . بعض الكلمـات يتغير بسـرعة ، والبعض الآخر أكـثر محافظة . وبالرغم مما زعم بالقرن الماضى من ادعاءات بأن الانجليزى بعد مائه عام لن يفهم الأمريكى، فإن معظم اللغات تحتفظ بهويتها فترة تسمح بأن تكون ، كالجينات ، مفتـاحا للماضى ولتاريخ معوقات التزاوج .

تكون العوائق اللغوية فى بعض الأحيان أضـأل من أن تُلحظ . من الممكن أن تقسم انجلترا إلى مناطق يحددها ما إذا كان الناس ينطقون حرف الراء إذا جاء فى آخر الكلمة أو لا ينطقونه ، مثل كلمة كَارْ Car . أنا لا أنطقها . أنا أقول كَاهْ – لقد تربيت فى ويلز وفي ميرسيساید ، لكن الكثيرين من أهالى كورنوول ولينكولنشاير، نورثامبريا (ومن الأمريكان) ينطقونها كارْ . قد يبدو هذا أمرا تافها ، لولا أن مثل هذه الفروق البسيطة قد تتجمع حتى تصبح عائقا يقف فى سبيل تبادل المعلومات ، فتولد لغة جديدة – بل وربما شعب جديد .

ونحن نلحظ هذا فى كل مكان بأوروبا . هناك فى ايطاليا بضع لهجات محلية ، البعض من كلماتها يمكن تعقبه إلى أصله الاغريقى . واللهجات المحلية تعكس التاريخ أيضا على النطاق الأوسع . لم يعد فى استطاعة الفلاح البرتغالى أن يفهم لغة

أهل البندقية بأكثر مما نفهمها نحن الانجليز ، لكنه يستطيع أن يتحدث الأسبانية مع جاره ، الذى يستطيع أن يتحدث مع ابن عمه من كتالونيا ، الذى يرتبط بدوره بإيطاليا من خلال لغة دوك * بجنوب فرنسا . تعكس سلسلة اللهجات المحلية تاريخا من أسلاف مشتركة ترجع إلى الامبراطورية الرومانية وما قبلها .

تبين شجرة عـائلة اللغات الاوروبية قرابة تربطها جميعا . تضم هـذه المجموعة ـ عائلة اللغات الهندية الأوروبية – لغات هندية ، كالبنغالية ، ولغات منقرضة مثل السنسكريتية . وقد أدرك وجودها السير ويليام جونز عام ١٧٨٦ ، الذى لاحظ أن اللغات اليونانية واللاتينية والسنسكريتية كلها قد نشأت عن منبع واحد شائع لم يعد له وجود على ما يبدو . أما اللغات الفنلندية والمجرية والتركية والمالطية فتنتمى إلى شجرة لغات أخرى . لكن اللغة الأولى لنصف سكان العالم تنتمى إلى الشجرة الهندية الأوروبية .

تبين الخريطة السياسية لأوروبا المعاصرة كثيرا من الحواجز القوية . والخريطة المناظرة للغات تشبهها على وجه العموم . معظم الفرنسيين يتحدثون الفرنسية ، ومعظم الألمان يتحدثون الألمانية . واللغة دليل على التاريخ ، وهى دافع للتماسك القومى ، وهى أيضا معوق لحركة الشعوب . إنها تقلل من فرص الزواج ومن انتشار الچينات – ولقد فعلت ذلك للآلاف السنين . يحكى لنا الإنجيل عن مصير سجين من قبيلة افرايم الاسرائيلية أسَرته قبيلة المناسة * : سأله رجال المناسة هل أنت من قبيلة إفرايم ؟ فلما أجاب بالنفى طلبوا منه أن ينطق كلمة شيبوليت ، فنطقها سيبوليت – لم يكن فى مقدوره أن ينطقها النطق الصحيح . فأخذوه وذبحوه .

وتبين الخريطـة الوراثية لأوروبا أن التخوم بين اللغات قد تكون مناطق تغير وراثى . هناك فى ويلز فروق وراثية بين الناطقين بالويلزية والناطقين بالانجليزية – وهذا واضح

* لغة d'oc تستخدم كلمة أوك مقابل كلمة نعم – فى مقابل اللغة الفرنسية أو لغة دوى التى تستخدم كلمة وى لتعنى نعم (المترجم) .

على وجه الخصوص فى المنطقة التى كانت تسمى بمبروكشاير ، والتى لا يزال يطلق عليها اسم انجلترا الصغيرة عبر ويلز لأن معظم ناسها يتحدثون الانجليزية . فى عام ١١٠٨ نقل الملك هنرى الأول إلى هناك من ضفاف نهر التويد جماعةً من الحرفيين ليقيموا صناعة النسيج . كان الموطن الجديد لمتحدثى الانجليزية ينتهى بحدود واضحة تماما : اللاندسكر . ولقد ظلت هذه الحدود حتى قرن مضى مانعا للزواج ، فلم يحدث عبرها إلا زواج واحد من بين كل خمسمائة. وبعد ثمانمائة عام من هذه الهجرة كانت مجاميع الدم بسلاّن المهاجرين لا تزال تختلف عن مجاميع دم جيرانهم المتحدثين بالويلزية .

وبنفس الشكل سنجد أن عشيرة أوركنى – ولغتها المحلية لغة اسكندناقية – تختلف عموما عن بقية اسكتلنده . بل لقد تفصح اللهجات المحلية عن عوائق بيولوچية . ففى فرنسا هناك خطوة وراثية قصيرة بين من يتحدثـــون لغة الدوك (الفرنسية الجنوبية) وبين من يتحدثون لغة الدِّوىّ الشمالية . تحكى الجينات واللغات نفس القصة عن التاريخ .

لكن الاتفـاق ليس دائما كاملا . كان للبلقان تاريخ صاخب من الحركة والغزو – مازالوا يحتفظون به – تاريخ حجب كل علاقة بين الوحدات اللغوية والوراثية . يتحدث المجريون أيضا لغة مميزة تماما ، وإن كانوا – بيولوچيا – قريبين جدا من جيرانهم . فرض محاربو المجر من الشرق ، لغتهم على من أخضعوهم، لكن أعدادهم كانت أقل من أن تؤثر كثيرا على چينات رعاياهم هؤلاء . وهناك فى بعض المناطق فروق وراثية داخل مجاميع تتحدث نفس اللغة . فشرق آيسلنده يختلف بعض الشيء وراثيا عن الغرب رغم عدم وجود اختلاف فى اللغة – وقد يكون هذا من آثار

* قبيلة المناسة هي واحدة من الاثنتي عشرة قبيلة التي شكلت الشعب اليهودي في العصور القديمة. أُطلق علي عشر قبائل منها أسماء أبناء يعقوب ، أما القبيلتان الأخيرتان فقد أُطلق عليهما إسما مناسة وإفرايم . حفيدي يعقوب إبني يوسف (المترجم) .

تاريخ استيطان غرب أيسلنده ، فقد نزل به مهاجرون اسكندنافيين جلبوا معهم زوجات وخدم من أيرلنده .

تبدو لغة الباصك – مثل چيناتهم – مختلفة عن كل اللغات الأخرى . كتب الكاتب اللاتيني ميلا في القرن الأول عن حيرته أمام أسماء شعوب وأنهار الباصك التي لا تعني شيئا في أية لغة يعرفها . وفرانسيس جالتون نفسه – الذي كان كثيرا ما يزور بلاد الباصك في إجازاته – يتذكر الأسطورة التي تقول إن الشيطان نفسه قد جاء هنا في زيارة ، فلما وجد بعد سنين ست أنه لم يستطع أن يتعلم اللغة ولا أن يجعل الباصك يفهمونه ، ترك البلاد يائسا . ربما اتضحت مشكلة الشيطان – التي يشاركه فيها الكثيرون – في مَثَل باصكي نموذجي مستغلق يقول: أويناك زيوربيتزاتزين دو إسكوا ، إيتا إسكواك أوينا (ويعني بالطبع : القدم تخدم اليد ، واليد تخدم القدم) . ربما كانت لغة الباصك هي آخر بقايا لغة أوروبا قبل الزراعة . أما اللغة الوحيدة التي تبدو الأقرب إليها فتتحدث بها بعض الشعوب المنعزلة بالمنطقة التي كانت تسمى حتى عهد قريب چورچيا السوفييتية . يعتقد الكثير من الچورچيين أن لغتهم قد نُقلت إلى بلاد الباصك عن طريق توبال حفيد نوح. ويجرى الآن البحث عن واحد من الباصك ليعتلي عرش چورچيا بعد أن استُعيد .

قاوم الباصك – الآمنون في جبالهم – أن يمتصهم الغزاة ، فعاشت لغتهم القديمة – لغة الصائدين جامعي الثمار . وجد هيكل الكرومانون نفسه في منطقة من فرنسا كانت يوما وطن الباصك (كما يدل اسم الموقع الجغرافي) ، وليس من المستحيل أن تكون هناك رابطة لغوية ، بل وربما أيضا وراثية ، بين الكرومانون – وهو أحد قدامى الأوروبيين – وبين الباصك المعاصرين . ولقد أصبحت آخر بقايا اقتصاد الصيد الأوروبي مهددة اليوم بالفناء . تمتد چينات الباصك إلى أبعد بكثير من اللغة ـ شرق سيراكوزا ، التي أصبحت الآن مدينة أسبانية ، وإلى الشمال في فرنسا . تحطّم اقتصادهم من زمان طويل . وربما قضى المجتمع الجديد على لغتهم (التي

كان يتحدث بها نصف مليون من البشر) وعلى حضارتهم . ومثل الإتروريين ، وكانوا يتحدثون أيضا لغة ليست هندية – أوروبية، لن يتبقى منهم سوى چيناتهم .

هناك بالطبع حالات كثيرة تروى الچينات فيها لنا عن الأسلاف أكثر مما تروى اللغة . فالچينات تدوم أطول كثيرا وهى تحكى أكثر عن الماضى . نحن نرى هذا فى الإتروريين وفى الباصك ، ونراه – عبر فترة أقصر جدا – فى بريطان اليوم . لقد جاء أجدادهم من أوروبا وأفريقيا والهند ، بل وحتى من الصين ، ورغم ذلك فلغتهم الغالبة هى الانجليزية . ستتآكل مع الزمن – بلاشك – الروابط بين الچينات واللغات بفعل الكتب والأفلام والتليفزيون . لكنا لا نزال فى مرحلة من التاريخ بها من بقايا الماضى اللغوى ما يكفى كى نخمن كيف تطورت اللغة . والبعض من التخمينات يلمّح عن البدايات الأولى للكلام ، بل وربما عن منشأ الانسان المعاصر نفسه .

من أين أتت اللغات الهندية الأوروبية ؟ إن أول لغة يمكن ادراكها من هذه المجموعة هى اللغة الحثّية ، المكتوبة بالحروف المسمارية والتى كانت تستخدم فى تركيا منذ أربعة آلاف عام . واللغات الهندية الأوروبية الحديثة تنطق مختلفة غاية الاختلاف . فمثلا : أبانا الذى فى السموات بالانجليزية هى أوَر فَاذَر ، هو آرت إنْ هيڤين ، وبالويلزية آين تاد ، إر هن ويت إين إى نيفود ، وباليونانية بايترا ماس، بو آيزاى ستوس أورَانص ، وبالروسية أوتشى ناش ، سوتشى نا نيبيزاش ، وبالهندى هِى هامارى سڤارجِباست بيتا .

ورغم ذلك فمن الممكن أن نعثر على كلمات شائعة واسعة الاستعمال يمكن استخدامها فى تخمين مكان نشأة اللغات . هناك مطلحات عديدة مشتركة عن الحيوانات الداجنة والمحاصيل . فالمصطلح الهندى الأوروبى القديم للغنم هو أوويس، ومنها الكلمة اللاتينية أوڤيس والسنسكريتية آڤيس والانجليزية يو . وكلمة بقرة الانجليزية كاو كانت كو ، وكلمة ماء الانجليزية ووتر كانت يوتور . وهناك كلمات مشابهة للأذرة والنير والحصان والعجلة .

. ربما كان أوائل الهنود الأوروبيين مزارعين حملوا معهم لغتهم عند انتشارهم . لا يتفق الجميع حول هذه الفكرة ، بل إن المنطقة التى عاشوا بها – نفسها – ليست مؤكدة . لاشك أن لغتهم قد ابتدأت قبل أن يُحفظ أول سجل بزمن طويل . يعتقد بعض الأنثروبولوچيين أنهم يمثلون موجة غزو قام بها شعب الكورجان من استبس البونتيك ، شمال وشرق البحر الأسود . وهذه المنطقة تضم بلاد حضارة السِّرْدْنى ستوج ، أول الفرسان ، وقد بدأ الغزو نحو ٤٥٠٠ قبل الميلاد – بعد بدء الزراعة بزمن طويل ، وأنهم جلبوا الزراعة معهم عندما هاجروا من آسيا الصغرى (التى تضم تركيا المعاصرة) قبل الكورجان بثلاثة آلاف عام . والواقع أن الشواهد الوراثية لا تحدِّد بوضوح إن كان منشأ الهنود الأوروبيين هو تركيا أم هو الاستبس . ربما بدأت بعض الشعوب (واللغات) الهندأوروبية الشديدة التباين والتى تشكل الكثير من شعوب أوروبا المعاصرة ، ربما بدأت فى الانشعاب بعيدا عن بعضهم بعضا قبل بدء تحركهم من موطنهم نحو الشرق . لو كان هذا صحيحا فسيصعب أن نعرف أية أمة (ولغة) من الأمم المعاصرة ، كانت هى السلف الحقيقى للأوروبيين المعاصرين – إن كان ثمة أمة .

اللغة وعلم الآثار والچينات ، كلها تشهد بأن غزو أوروبا قد تم من الشرق . إن الرابطة التى نراها اليوم تربط بين حركة الزراعة والچينات واللغات وبين الأمم المتنافسة، نشهدها واضحة فى كل مكان آخر بالعالم الحديث . كثيرا ما تتحرك الزراعة إلى مناطق غير مأهولة ، أو قليلة السكان ، لا إلى اقتصاد صيدٍ مزدهر كأوروبا. أخذ مزارعو الأرز بالشرق الأقصى حول حوض اليانجتسى معهم لغتهم وچيناتهم عندما عمّروا الباسيفيكى . ولقد كانت عائلة اللغات الأوسترونيزية هذه يوماً هى الأوسع انتشارا ، وتمتد من مدغشقر إلى هاواى وجزيرة عيد الفصح . أما فى أفريقيا فقد انتشر الفلاحون نحو الجنوب ، ليعمروا المناطق الغربية والجنوبية من أفريقيا بالمتحدثين بلغة البنتو .

تتضمن أهم التقدمات التقنية اليوم – بدءا من الكتاب المطبوع وحتى التليفون المتحرك – طرقا جديدة للاتصال بين الناس . إن هذا هو ما يـؤدى إلى تآكل دول- الأمم التى شكلت التاريخ منذ أيام المزارعين الأوائل . إننا نستطيع اليوم أن نتحدث مع أى شخص فى العالم حالما تمكّن من الحصول على تليفون . ربما اقترحت الأعمال الحديثة عن النظم الكرضية للغات أيضا أن أول اختراق اجتماعى كان يتضمن بعضا من تكنولوچيا الاتصالات .

وأنماط التغير التى نمت من خلال الطفرات عبر المائة ألف عام الماضية ، يمكن أن تستخدم فى رسم شجرة العائلة لشعوب اليوم . يشكل الأفارقة غصنا واضح المعالم وقديما من الشجرة ، أما الهنود والأمريكان فيشكلون مع أسلافهم الأمريكيين واستراليا وغينيا الجديدة فرعاً منفصلا . وفى إمكاننا أن نرسم شجرة عائلة للغات بنفس الاسلوب . يَتَعَنْقَدُ الانجليز والألمان والبنغاليون سويا فى عائلة هندأوروبية ، بينما يصنع الصينيون واليابانيون زمرة أخرى . وشجرة اللغة التى ترتكز على بضع كلمات معدودة (مثلا : واحـد ، اثنين ، ثلاثة أو رأس ، أذن، عين أو أنف ، فم ، سنّة ... الخ) تشبه كثيرا الأخرى المرتكزة على مفردات أكثر كثيرا . تستخدم مثل هذه القوائم المحدودة من الكلمات وبنجاح كبير فى تصنيف اللغات الأقل انتشارا (كلغات أفريقيا أو العالم الجديد) .

ثمة ادعاء جديد مثير للجدل يقول إنه من الممكن بهذه الطريقة أن نصنف كل لغات العالم إلى سبع عشرة عائلة مختلفة لا أكثر . تقع كل لغات الأمريكتين الألف – أو نحو ذلك – فى ثلاث منها : الاسكيمو الأليوتية فى أقصى الشمال ، النادينيه فى جنوب ألاسكا وكندا ، والأرندية لكل اللغات بجنوب باتاجونيا . والانتشار العريض لهذه العائلة المنفردة يقابله نمط بابوا غينيا الجديدة ، حيث سنجد نحو ٨٠٠ لغة فى منطقة مساحتها أقل كثيرا – والعديد منها لا يمت لغيره بأية صلة. ليس من قبيل المصادفة أن نجد نفس النمط فى وراثة متحدثى لغات الأمريكتين وبابوا غينيا الجديدة . فالأمريكيون أكثر تماثلا من الناحية الوراثية ، بينما

يختلف البابويون كثيرا من وادٍ إلى وادٍ . وبالقوقاز ، بين البحر الأسود وبحر كاسبيان، سنجد أعلى تركيز لتنوع اللغات ، ففى منطقة تبلغ مساحتها ضعف مساحة بريطانيا هناك أربعون لغة مختلفة تماما ، البعض منها لا يستخدم إلا فى قرية واحدة . بل وهناك بعض التلميحات عن وجود رابطـــة مع مجموعة نادينيه ومع لغة التبت . لكنا للأسف لا نعرف شيئا عن وراثة القوقاز .

نستطيع أن نرسم شجرة توضح العلاقات بين كل لغات العالم ، بل وأن نخمن ـ تخمينا متهورا ـ بعض الكلمات القاعدية فى أساسها جميعا . حاول بعض اللغويين الروس إعادة تركيب اللغة النوستراتية ـ وهذه لغة عمرها اثنى عشر ألف عام يعتقد أنها أصل اللغات الهندية الأوروبية وأقاربها ـ وتضم هذه العائلة الإليمو ـ دراڤيدية المستخدمة فى بعض مناطق الهند ، واللغات الألتية التى تضم التوركية والمغولية ، وزمرة من اللغات الأفروأسيوية تستخدم فى النصف الشمالى من أفريقيا . أعاد هؤلاء اللغويون تركيب أكثر من ألف جذر من بينها مثلا كلمة تيك وتعنى الإصبع ، وكلمة كوچنا وتعنى الكلب . ولم يجدوا كلمات مشتركة فى مجال الزراعة ، الأمر الذى قد يقترح أن هذه اللغة البدائية قد نشأت حقا فى زمن سابق للزراعة .

ومن عجب أننا إذا وضعنا شجرة لغات العالم بجوار الشجرة الوراثية فسنلحظ على الفور تشابها كبيرا ، فكلاهما قد نشأ فى أفريقيا ، وكلاهما يبين نفس الانشقاق بين الأسترالازيا وغيرها من الشعوب الأسيوية . وربما أشار ذلك إلى أن تاريخ اللغة ذاتها يرجع إلى بداية البشرية . إن اللغة المنطوقة تسيم قفزة هائلة فى سرعة نقل المعلومات . فلو أنا تهجّينا هذه الجملة حرفا حرفاً فسنأخذ فى نقلها إلى الآخرين عشرة أمثال وقت نطقها . إن مأساة الأصم والأبكم فى المجتمع الحديث تبين مدى اعتماد حياتنا على القدرة على التكلم . يصعب أن نتخيل مجتمعا يسير بدونها . تبين عظام أوائل البشر المعاصرين أنْ قد كانت هناك تغيرات فى شكل الجمجمة وفى موضع الحنجرة ـ ربما حددت أقدم المهارات على تشكيل صوت منطوق

بوضوح . إن هذا ، بالإضافة إلى التوافق بين جينات ولغات اليوم ، قد يقترح أن اللغة هى حقا ما جعل البشر بشرا .

ولقد شعر شيلى بنفس هذا : ففى روايته بروميثيوس طليقاً جعل البطل الاسطورى يمنح الرجال لغةَ الكلام ، لتخلق اللغةُ الفكْرَ . قد لا نتفق جميعا معه فى هذا . يقترح بعض الأنثروبولوچيين أن إنسان نياندرثال نفسه كانت له لغة مصقولة اختفت تماما (كما يفترض) بانقراضه هو نفسه . ثمة تلميح عن فجر أقدم للغة . تقضى القرَدة العليا معظم وقتها ينظفون بعضهم بعضا ، كى تفصح للرفاق عن مدى الانتماء إلى الجماعة . لو ان قدامى البشر كانوا يطَمئنون رفاقهم مثلما تفعل القردة العليا ، فلربما كان عليهم (بالنظر إلى عدد أفراد جماعة الصيد) أن يقضوا نصف وقتهم يرعون بعضهم بعضا . إن الحديث ـ حتى ولو بلغة بدائية ـ هو طريقة أفضل كثيرا من اللمس فى تهدئة الرفيق . ولربما كانت أولى الكلمات هى كلمات ملاطفة – ظهرت قبل ظهور أسلاف اللغات المعاصرة بزمان طويل .

أبدا لن يتمكن أحد من أن يعيد تركيب لغة النياندرتال أو يتحدثها – إذا كان ثمة لغة . كانت هناك ادعاءات كثيرة بالنسبة للغة جنة عدن . اقتنع بيكانوس – فيلسوف القرن السادس عشر الألمانى – أنها كانت اللغة الألمانية القديمة ، وأن العهد القديم قد ترجم عنها إلى العبرية (وإن كان الامبراطور الرومانى المقدس تشارلس الخامس قد قال إنه يتحدث الفرنسية إلى الرجال ، والايطالية إلى النساء ، والأسبانية إلى الله ، والألمانية إلى الخيل !) . وربما أتيحت لنا الفرصة عما قريب للوصول إلى الحقيقة .